

# حول مقال نداء المسؤولية التاريخية

ايها الرفاق

لقد نبعت فكرة المقال من الفترة العصيبة التي تجتازها الأمة العربية، فترة ضياع وتششت وبأس يزداد يوماً بعد يوم وكان هناك مخططاً معادياً لكي يخدر الشعب العربي ويوقعه تحت شعور العجز التام واليأس من نفسه.

في هذا الجو يستيقظ الحس التاريخي في الحزب، والدور الأصيل للحزب يعود ليفرض نفسه بالحاح على ضمائر المناضلين وعقولهم: هل انتهى الحزب؟ هل تسري عليه هو أيضاً نفس قوانين اليأس والعجز والضياع ويكون من بين المستسلمين والمتفرجين على عجزهم وعلى ذلهم، أو انه، لما له من نظرة قومية شاملة، بما له من ماضٍ طويل، يشعر انه مازال قادراً على أن يقول كلمته وأن يلعب دوره متجهاً الى المستقبل متحلاً من شتى القيود الاصطلاحية والأفاق الضيقة ولو بشيء من القسوة على النفس وبتوجيه اللوم والتعنيف للنفس، والرجوع الى الأفكار والمبادئ الأساسية للحزب، والرجوع الى عفوية الشعب بالوقت ذاته أو كشيء واحد، أي ان الرجوع الى المبادئ الأساسية هي مثل الرجوع الى عفوية الشعب. هل نستسلم؟ أم نقاوم مؤمنين وواثقين بقدرات أمتنا اللامحدودة على المقاومة والصمود؟

وهذا يجب ان يبقى أيضاً ضمن صيغ واقعية وان لا يتميع في أحلام واسعة

وسائبة .

فمن أرض المعركة من موطن الخطر، يجب ان نستخرج الصيغة الواقعية العملية لتكون بداية الانطلاق البداية الناجحة المشجعة حتى تتحرك القوى العربية في الأقطار البعيدة وترفد هذه البداية وتكملها .

كيف نستطيع اذن ان نجد نواة قوة جدية للمواجهة، لمواجهة اسرائيل؟  
هناك اذن الأقطار الأساسية واضحة : مصر والعراق وسوريا .

فلماذا إذن هذا الشيء البديهي في ضمير الشعب وتفكيره، لماذا هذا الشيء كاد يصبح أبعد شيء عن التصديق، أي أن تجتمع هذه الأقطار الثلاثة؟  
لأن هناك مؤامرة كبيرة وقديمة، وحرزنا يعيشها من الداخل وأقدر من أي فئة في الوطن العربي على كشفها وفضحها وبالتالي تحطيم هذه العقبات التي كانت توضع دائماً لمنع وحدة الأقطار الثلاثة .

فكان لا بد إذن من التفاتة الى الماضي، التفاتة الى الورا، الى ماضي أكثر من عشر سنوات أو ١٢ سنة، الى تاريخ قيام أول تجربة وحدوية الذي هو في الوقت ذاته تاريخ احكام أكبر مؤامرة استعمارية صهيونية، لم تكن المؤامرة الأولى ولكنها حلقة جديدة وضخمة تتناسب مع القفزة التي حققتها الأمة العربية في ذلك التاريخ من بعد جملة انتصارات تتالت في أعوام قليلة وتوجت بقيام الوحدة بين سوريا ومصر .  
ضخامة هذه المؤامرة وخبثها يتمثل في انها لغم للثورة العربية من داخلها، بزرع بذور الانقسام والتناحر فيما بين قواها الرئيسية .

ولأن الاستعمار والصهيونية تقديراً لخطر نجاح الثورة العربية ولخطر تحقق الوحدة العربية على وجودهم، وضعوا كل إمكانياتهم ودهائهم وأحدث أساليب التخريب في تلك المؤامرة، ولكن الثورة العربية من جهة أخرى غضة العود فيها ثغرات، وفيها سطحية، وفيها عاطفية أكثر مما فيها من الوعي العميق والتنظيم المتين، وفيها جملة تناقضات، كل هذا سهل ان تنزلت بعض القوى الثورية العربية في مخططات الانقسام دون تقدير لكون هذا ما يرمي اليه الاستعمار والصهيونية، اي انزلاق دون وعي تام واضح لمرامي هذا المخطط .

إذن الدعوة الى توحيد هذه القوى الأساسية كبداية للمواجهة، لمواجهة العدو ولمعركة التحرير من دون هذا النقد الذاتي، وهذا الرجوع الى الماضي لتحليله وتوضيح تناقضاته وأسباب نكساته، وكل ما دخله من الارادة الأجنبية والتخطيط الأجنبي، الدعوة هذه تبقى دعوة شكلية وفوقية وسطحية وعقيمة، أما ان تبقى بدون تنفيذ وأن تصبح كمثمل هذه الدعوات والمشروعات التي تقوم من اتحادات لا تبني على أساس جدي، عميق ومتين من الوحدة الحقيقية بين الجماهير، وحدة تقوم على انقاض الرواسب والحواجز المصطنعة والأحقاد والخلافات التي افتعلها الأعداء.

إذن الدعوة منطلقة أساساً من جواب على سؤال مصري:

هل نستسلم ام نقاوم؟ هل نياس ام نؤمن بإمكانية النصر؟

وبعد هذا الجواب من الطبيعي ان نعتبر ان حزبنا هو القوة الثورية المؤهلة ان تقود وأن تتبنى هذه الدعوة، وأن تتوجه بثقة بالنفس وثقة بالامة، تتوجه إلى القوى الأخرى التي لا بد من اشراكها اذا كنا مصممين على خوض المعركة.

ولا يمكن ان نجد سبيلاً إلى عقول جماهير هذه القوى وقلوبها اذا لم ننطلق من التجرد الكامل والنزاهة التامة والارادة المؤمنة فلا نميز أنفسنا عنها ولا نتجاهل قسطنطين من الخطأ بل نتكلم بلغة الجماهير العفوية وبنظرتها التي لا تقر الخلافات مهما كانت وجاقتها أمام خطر الغزو الاستعماري الصهيوني المدمر لوجود الأمة.

هذه اللغة التي هي لغة الشعب، لغة الجماهير، لا بد ان تصدم العادات المألوفة والتفكير العادي والعقليات والمصالح، ولكن ليس غير هذه اللغة قادراً أن يعبر عن الحاجات العميقة بهذا الظرف وأن ينقل القوى الثورية الى المناخ الثوري الحقيقي.

هذه الدعوة إذن، لئن تضمنت قسوة على أنفسنا كحزب فهذا هو الثمن والشرط الضروري لكي يبقى للحزب دور تاريخي، ولكي يبقى له حق القيادة وحق التوجه الى القوى الأخرى وتحريرها وتوحيدها.

والمفروض انه إذا أدرك الحزب مرامي هذه الدعوة، وارتفع الى مستواها المفروض فيه ان يرى فيها مصلحته العميقة وسبيل استمراره كقوة من قوى

المستقبل، مادامت القوى الأخرى لم تبرهن على نفس الدرجة من التجرد والوعي والثقة بالنفس حتى تبادر الى مثل هذا الموقف أو مثل هذه الدعوة.

طبيعي ان المقصود بالدعوة هي الجماهير وليست الأنظمة والمقصود بصورة خاصة من الحركة الناصرية هي الجماهير العربية في مصر لأن حزبنا يتميز بأنه يدرك اهمية مصر ولا يتصرف بردود الأفعال.

فمصر فيها مفارقات، فيها أعلى مستوى علمي وحضاري وصناعي بالنسبة الى الأقطار العربية الكبرى، وفيها أكبر كتلة بشرية من جهة وهي حديثة العهد بالوعي العربي ومتخلفة بأمور أخرى، إذا قيست ببلدان والعراق وسوريا تظهر متخلفة في بعض الأشياء الأساسية التي تدخل في صميم العمل الثوري العربي.

فلا بد أن تدخلها حركتنا ولا بد أن تتفاعل معها، وإذا عرفنا كيف هي العقلية في مصر، عقلية الطبقة المثقفة التي تعد بالألوف، هذه الطبقة القابضة على زمام التوجيه، وهي عقلية الاعتداد وعقلية الاستعلاء والاكتفاء بالذات وعدم التصور بأن شيئاً يمكن ان يأتي من خارج مصر لا بد اذن أن نجد الاسلوب المناسب، ان نزيل هذه الحواجز النفسية ولو اقتضى الامر حداً كبيراً من المرونة حتى يتحقق هذا الانفتاح.

لا يمكن ان نتنظر حتى يأتي الآخرون اليينا، لا يمكن ان نتنظر الآخرين حتى يدخلوا المعركة، نحن يجب ان نبدأ، وان ندرك مسؤولياتنا، يجب ان نبادر.

نحن نتوجه الى الجماهير والى الفئات الواعية والبعيدة عن الانتهازية وعن المصلحية، القريبة من مصلحة الطبقة الشعبية، هذه تدرك بان مواجهة المعركة المصيرية لا تكون الا بالوحدة، وبالوحدة الجماهيرية الواسعة. وبالتالي الالحاح على أسباب الفرقة والاختلاف في هذا الظرف ليس إلا حجة من أجل التهرب من المعركة. افتعال المحاور والخلافات بين الأقطار والحكومات ومع حزب البعث بصورة خاصة. تذكرون كيف في وقت الموافقة على مشروع روجز افتعلت حملة على الحزب ربما كان القصد منها ان يعودوا الى المهاترات التي عرفناها في عام ١٩٦٣ و ١٩٦٤.

هذا مفهوم، انها ذرائع لتحجب عن الجماهير الطريق السوي الطبيعي لمقاومة العدو.

الطريق الطبيعي هو في الوحدة العربية، وحدة للتحريض، وحدة لدخول المعركة، وحدة الجماهير المسلحة المقاتلة، فالأنظمة التي تخاف من الجماهير والتي لا تسلح الجماهير، لا تستطيع ان تدخل في معركة مع العدو، وبالتالي تحتاج الى ان تستر وأن تلقي التبعة على غيرها.

إذن فان حزبنا لا يستطيع ان يتخلف وأن يستعمل نفس الأسلوب بأن يلقي التبعة على غيره، والا سقط في عداد الحركات نصف الثورية وهبط الى مستوى الأنظمة القطرية العادية.

فاذا كانت هناك مسؤولية تاريخية كيف يجوز للحزب أن يدير ظهره لها؟ أن يتجاهلها؟ فاذا تجاهلها، فان التاريخ يتجاهله، ولا أقول بأن مجرد الدعوة للوحدة العربية ولدخول المعركة سيحقق هذه الغاية وان الوحدة ستتحقق وسندخل معركة التحرير.

كلا . . . ولكن يجب ان نبدأ، أن نحرك الجو . . . هنا دعوة الى شعب مهدد بوجوده أن ينتبه، دعوة الى الضمير والعقل، أن يصحوفي ساعات الخطر ودعوة من حزب يقول عن نفسه انه حزب الوحدة العربية، حتى عندما يحتمل الحزب نفسه جزءاً من الأخطاء والنقد الذاتي فان هذا يجعل كلامه مسموعاً لدى الآخرين، فينظر اليه بانه موضوعي متجرد علمي صادق وانه لا ينشد المزايدة او الاستغلال أو تسجيل التقصير على الآخرين أو أي شيء من هذا النوع. هذه دعوة الى الشعب الى الجماهير، إلى الأفراد الواعين، المتجردين، المتحسين بالمسؤولية التاريخية وهم موجودون في أمتنا وفي كل قطر.

ايها الرفاق:

إن هذا المقال هو حلقة في سلسلة طويلة وكم كنت أتمنى . . . لو كانت أطول بكثير مما هي، أي ان أتمكن أنا وكثيرون غيري من الرفاق أن يكتبوا في هذا المجال منذ سنين، أي ان يوضحوا ويفضحوا أبعاد مؤامرة كبرى على حزب البعث، وهي

مؤامرة على الثورة العربية ولا تقتصر على الحزب. مؤامرة بدأت بالكشف عنها للرأي العام الحزبي والشعبي من قبل ٢٣ شباط، منذ عام ٦٤ حتى الآن في كتابات وأحاديث في مؤتمرات الحزب وفي بعض مناسبات عامة في سوريا وفي ندوات مع القواعد قليلة، لانه لم يكن ذلك ميسوراً دوماً. كانت تقوم صعوبات جمّة في وجه لقائي مع القواعد ولوراجعتم هذه المقالات والاحاديث التي جمعت في كتاب «نقطة البداية» وهي ليست كل شيء، لان أكثر الأحاديث والكلمات التي ألقيت في سوريا بين عامي ٦٤ و٦٦ غير متوافرة وليست في متناول اليد، لوجدتم انها كلها تدور حول هذه الاشياء، أي ان هناك مؤامرة يجب فضحها ويجب ان يلجأ الحزب الى الجماهير يصارحها ويشركها في قضيته وفي المحنة التي يتعرض لها باستمرار. عندئذ سيجد العون الكبير من الجماهير.

كانت تطفئ عوامل عدة. ومنها هذا الاعتبار، ان مايجري في الحزب يجب ان يبقى ضمن جدران الحزب لان ذلك غير مألوف، ولان ذلك يضعف الحزب عندما يكشف الخلافات والاشياء الداخلية لان اعداء الحزب يستغلون ذلك.

لكن قناعتي كانت دوماً أن الفوائد من هذه المصارحة وهذا الكشف هي أضعاف الخسائر والاضرار وهذه بالاصل النظرة الثورية التي ولد منها الحزب.

وأظن ان كل حزب ثوري يولد هكذا لانه عندما نعلن للشعب هذه الاخطاء سيسمعها الاستعمار والصهيونية، ولكن عندما نقرر أن نعلن أفكارنا للشعب فاننا ننطلق من الايمان بأن الشعب يتفاعله مع هذا الفكر يتمكن من ضرب الاعداء ويُفوّت عليهم استغلالهم ومؤامراتهم.

فالأعداء سيعملون كل ما في وسعهم لاحباط هذه الحركة والتآمر عليها، ولكن عندما نمضي في طريق اعلان أفكارنا للشعب نكون قد آمننا بأن اعتناق الشعب لها أقوى من تخريب الاستعمار والرجعية والاعداء، وإلا لكان أسلوب الجمعيات الباطنية والسرية هو الاسلوب الصحيح.

المؤامرة ايها الرفاق هي تشويه هذا الحزب تشويهاً كاملاً الى حد إيصاله إلى

نقيضه.

المؤامرة أرادت تحويل الحزب من حزب الجماهير الواسعة الى حزب القلة القليلة الضيقة الحاكمة المتشنجة .

من حزب التراث العربي الى حزب الطوائف والاقليات، من حزب القيم الانسانية الى حزب القمع، من حزب الوحدة والوحدويين الى حزب الانفصاليين والاقليميين . . . لقد بدأت هذه الصورة تعطى عن الحزب بعد عام ٦٣ حين صوروه في الاجهزة الاعلامية بأنه حزب فاشي، حزب القمع والاجرام .

ان هذه المؤامرة اذا لم نكشفها لقواعد الحزب وللشعب ستبقى مسيطرة على أذهان الجماهير وأذهان القواعد، وحين تكوّن الجماهير فكرة معينة عن حزب البعث يستحيل ان تسير قواعد الحزب في صورة مختلفة . الجماهير هي المناخ الطبيعي والمجال الحيوي لعمل قواعد الحزب .

فاذا كان عند الجماهير صورة مشوهة عن الحزب فعمل الحزب بينها يصبح عبثاً .

يجب ان يكشف الحزب هذا التشويه التاريخي بعملية مصارحة موضوعية ونزيهة، بهذا يكون قد فتح لنفسه طريقاً جديداً بعدما كادت السبل تسد في وجه رسالته .

يجب ان نعيد الصورة الاصلية للحزب، هذا حزب الوحدة حزب التراث العربي، هذا حزب العروبة الانسانية، لا نتساهل في هذه الصفات بأي شكل من الاشكال، لا نقبل ان يتوقع حزبنا فيأخذ شكلاً منفراً وحادداً ومبغوضاً من الجماهير الواسعة . . .

فالحزب وجد للشعب وليس العكس . . .

والثورة وجدت للشعب وليس العكس . . .

فالمسألة إذن ليست جديدة، وإنما هي محاولة قديمة ومستمرة، وكل أملي ان يتبناها الحزب ويساهم فيها ولا تبقى على جهد فرد واخذ .

عام ١٩٧٠